Revue Internationale de Recherche Scientifique et Etudes Doctorales

ISSN : 2665-8763
Doi : 10.57109/8112 volume 5 Issue 1 – 2025

من الروابط المفروضة الى الروابط المختارة: تحولات في العلاقات الحميمية داخل الأسرة

From Imposed Ties to Chosen Ties: Transformations of Intimate Relationships within the Family

Abbaoui, Hasna [1]

ABSTRACT:

This study examines transformations in contemporary family ties by analyzing the shift from socially imposed bonds to emotionally chosen relationships. It seeks to question the capacity of the sociology of intimacy to account for these changes without reducing family relations to a narrow logic of individual freedom and self-choice. The study is grounded in the assumption that recent transformations affecting the family do not signify a complete emancipation from social constraints, but rather reflect a reorganization of ties and obligations within private life. Adopting a critical theoretical approach, the analysis deconstructs sociological perspectives on individualization, intimate relationships, and family change, while reassessing them through frameworks that foreground power relations, social and gender inequalities, and the symbolic market of emotions. This approach makes it possible to move beyond purely descriptive accounts of family transformation toward an analysis of its internal social logic.The findings demonstrate that contemporary intimacy does not eliminate power relations within the family, but instead contributes to their reconfiguration through a logic of choice and negotiation. The study also shows that the family has become a fragile space in which relationships are managed through implicit and revisable contractual arrangements, where emotional fulfillment becomes a condition for continuity and freedom turns into an individual burden. It concludes that intimacy constitutes a central site for the reproduction of social and gender inequalities, thereby calling for the development of a critical sociology of intimacy that moves beyond the traditional dichotomy between liberation and regulation.

KEYWORDS: Sociology of the family, contemporary intimacy, family vulnerability, family relationships, individualization**.**

[1] Department of Sociology, Laboratory of Human, Society and Values, Ibn Tofail University, Kenitra, Morocco.

الملخص:

تتناول هذه الدراسة تحولات الروابط الأسرية الحديثة، من خلال تحليل الانتقال من روابط مفروضة اجتماعيا إلى روابط مختارة عاطفيا. وتهدف إلى مساءلة قدرة سوسيولوجيا الحميمية على تفسير هذه التحولات دون السقوط في اختزال العلاقات الأسرية في منطق الحرية الفردية والاختيار الذاتي، وتنطلق الدراسة من فرضية مفادها أن التحولات التي مست الأسرة لا تعكس تحررا كاملا من القيود الاجتماعية، بقدر ما تعبّر عن إعادة تنظيم جديدة للروابط والالتزامات داخل الحياة الخاصة. وتعتمد الدراسة مقاربة نظرية تحليلية ذات بعد نقدي، تقوم على تفكيك الأطروحات السوسيولوجية التي تناولت الفردنة، والعلاقة الحميمية، والتحولات الأسرية، مع مساءلتها في ضوء مقاربات تركز على السلطة، واللا مساواة، والسوق الرمزي للعاطفة. ويمكن هذا التوجه من تجاوز القراءات الوصفية للتحول الأسري نحو تحليل منطقه الاجتماعي الداخلي. وتظهر النتائج أن الحميمية المعاصرة لا تؤدي إلى اختفاء علاقات السلطة داخل الأسرة، بل تسهم في إعادة تنظيمها ضمن منطق الاختيار والتفاوض. وتبين، نتائج الدراسة، أن الأسرة أصبحت فضاء هشا تدار داخله العلاقات عبر صيغ تعاقدية ضمنية قابلة للمراجعة، حيث تتحول العاطفة إلى شرط للاستمرارية، وتصبح الحرية عبئا فرديا يتحمل تبعاته الأفراد. وتخلص الدراسة إلى أن الحميمية تمثل اليوم أحد المواقع المركزية لإعادة إنتاج اللامساواة الاجتماعية والجندرية، الأمر الذي يستدعي بلورة تصور سوسيولوجي نقدي للحميمية يتجاوز الثنائية التقليدية بين التحرر والضبط.

الكلمات المفتاحية: سوسيولوجيا الأسرة، الروابط، الحميمية المعاصرة، الهشاشة، العلاقات الأسرية، الفردنة.

تقديم:

تعد الأسرة موضوع إشكالي في السوسيولوجيا المعاصرة. فهي لم تعد تطرح باعتبارها معطى اجتماعي بديهي أو وحدة طبيعية مستقرة، ولكن كتقاطع لتحولات عميقة تمس البنى الاجتماعية، وانماط العيش، وأشكال العلاقات الحميمية. إن السؤال حول الأسرة اليوم، لم يعد سؤالا عن شكلها أو بنيتها، بقدر اعتباره سؤالا عن منطقة الروابط التي تنتظم داخلها، ومعايير شرعيتها، وشروط استمراريتها. وفي هذا السياق، يرى فرونسوا ذو سينغلي "François de Singly" أن تعريف الأسرة لا يتمتع بأي إجماع، حيث يشير إلى النقاشات الجدالية في فرنسا حول قانون الزواج للجميع[2]، والتي انقسمت في تعريفها وتحديدها لطبيعة الأسرة، بين من يعتمد على مفهوم الأسرة الطبيعية (المكونة من زوج وزوجة وأبناء) وبين من يرى بأن اختلافات الجنسين ليست عنصرا بنيويا في بناء الأسرة، وأن هناك أنماط أخرى من النسب والقرابة[1]. ويسجل كذلك وجود ثنائية لتصنيف طبيعة الأسر وهي ثنائية التقليد والحداثة، والتي تظهر كأنها وصف للواقع بينما هي في الحقيقة تنتجه. ويعتبر هذا التقسيم وما يترتب عنه نتيجة خطأ يتمثل في اعتبار الشكل والبنية مؤشرا على منظومة القيم التي تقوم عليها الحياة الأسرية[1].

تحد فكرة البنية كأساس لفهم الأسرة الحديثة من القدرة التفسيرية للتحليل السوسيولوجي. وفي هذا الصدد، فإن التحول لم يطرأ على الشكل والبنية في الأسرة بقدر ما مس الوظيفة الداخلية للعلاقات الأسرية، حيث أن الأسرة، كما يرى ذو سينغلي، ترتكز تدريجيا حول الأشخاص والعلاقات الشخصية، حيث يقوم الزواج على الاختيار والحب، لا على الإلزام الاجتماعي. وبهذا المعنى تحولت الأسرة من مؤسسة للأدوار

[2] Loi n° 2013-404 du 17 mai 2013.

الاجتماعية إلى فضاء للحميمية. والذي يوفر الأساس لتحليل سوسيولوجي لمنطق العلاقات داخل الأسرة نفسها. وفي هذا الصدد، ركزت دراسات أنتوني غيدنز Anthony Giddens وأولريش بيك Ulrich Beck على تحول الروابط الأسرية إلى العلائقية الخالصة وتحرر العلاقات الأسرية والحميمية من البنى التقليدية إلى الفردنة. وهو ما يطرح أسئلة نظرية أساسية تتجلى في؛ إلى أي حد تمثل هذه الدينامية تحررا فعليا من القيود التقليدية؟ وهل يعني الانتقال إلى علاقات قائمة على الاختيار والعاطفة تراجع علاقات السلطة داخل الأسرة، أم إلى إعادة تشكيلها بأشكال أكثر نعومة؟ وبعبارة أخرى، هل تمثل الحميمية المعاصرة فضاء للحرية، أم آلية جديدة لتنظيم الالتزام والهشاشة داخل الحياة الأسرية؟

1. تحول مفهوم العلاقة داخل الأسرة

تركز الأدبيات السوسيولوجية الكلاسيكية على الأسرة كبنية أدوار محددة اجتماعيا ومؤسسة تنظيم وضبط السلوك[2] [3] [4] [5]. حيث أن الأسرة في منظور بارسونز Talcott Parsons تعرف كنظام للأدوار (of roles system a)، أي أن كل فرد من أفراد الأسرة لديه دور وظيفي يؤديه، بمعنى أن العلاقة الأسرية هي انعكاس لأدوار وظيفية تؤدى داخل البنية. وتعتبر الأسرة في منظور دوركايم Émile Durkheim مؤسسة للضبط الاجتماعي، بمعنى أنها ليست فضاء للتعبير الذاتي ولكنها مؤسسة لتنظيم السلوك، ونقل القيم وضبط الأفراد. على هذا الأساس، فإن الزواج والأبوة والأمومة لا تعرف كعلاقات اختيارية، بل كمواقع اجتماعية تفرض من خلال القرابة والقانون والدين. وبهذا المعنى، فإن العلاقات الزوجية أو العلاقات الأسرية بشكل عام، ليست موضوع تفاوض ولكنها التزام اجتماعي يركز على الاستمرارية الاجتماعية دون أن تحقق بالضرورة الرضا والذات الفردية [5]. وبهذا المعنى فإن الأسرة، لم تكون وفق المنظور الكلاسيكي، علاقة قائمة بل نظام للأدوار الاجتماعية. ومع دخول الفرد إلى الأسرة الحديثة، لم تعد الأسرة الحديثة تعرف كنظام للأدوار يخضع له الأفراد، بل كفضاء يفترض فيه أن يسمح للأفراد بتحقيق ذواتهم، وعبر مفهوم "الأسرة العلائقية" [1][3] لم يعد الزواج أو الأبوة يقومان على الامتثال لقواعد خارجية، بل على القدرة توفير الاعتراف والدعم وبناء الهوية الفردية داخل الفضاء الاسري [1].

يعكس هذا التحول انتقالا عميقا في معيار شرعية الروابط الأسرية. ففي النموذج التقليدي، كانت العلاقات تعتبر مشروعة بمجرد كونها قانونية أو دينية، لكنها أصبحت في السياق المعاصر مطالبة بتبرير نفسها من خلال جودتها العاطفية، حيث تحول السؤال المطروح، من منظور سوسيولوجي، من هل هذه العلاقة صحيحة اجتماعيا، إلى هل هي علاقة مرضية ذاتيا ونفسيا. وفي هذا الصدد، يقوم أنتوني غيدنز Anthony Giddens بصياغة مفهوم "العلاقة الخالصة" والذي يعكس هذا التحول ويقوم على الرضا المتبادل بين الأطراف كأساس له [6][4]. حيث أن العلاقة لا تقوم في هذا الإطار لا تستمد شرعيتها من التقاليد والأدوار، بل من قدرتها على تلبية الحاجيات العاطفية والنفسية للأفراد، ما يجعلها بطبيعتها علاقة مشروطة وقابلة للمراجعة الدائمة [6].

ورغم ما يظهره هذا التحول في طبيعة العلاقات من إيجابية مفترضة، إلا أن قيامها على روابط الاختيار الحر لا يؤدي إلى استقرار أكبر، فمن خلال منظور أولريش بيك وإيلزابيت بيك غرينشايم Beck Ulrich & Elisabeth Beck-Gernsheim، يتحول هذا الاختيار الحر إلى ما يسميانه "فوضى طبيعية

---

[3]يشير مفهوم "الاسرة العلائقية" إلى أن الاسرة الحديثة لم تعد روابطها تقوم على الأرض والتراث والملكية والواجب، بل على الأشخاص والعلاقات.

[4]تشير العلاقة الخالصة وفق أنتوني غيدنز إلى "وضع تقام فيه علاقة اجتماعية لذاتها، لما يمكن أن يستمده كل شخص من ارتباط مستمر بالآخر؛ وتستمر هذه العلاقة فقط بقدر ما يعتقد الطرفان أنها تمنح كل فرد قدرا كافيا من الإشباع ليستمر فيه... والعلاقة الخالصة، للتأكيد، هي جزء من إعادة هيكلة عامة للحميمية".

للحب"[7][5]، حيث تصبح الروابط أكثر تحررا ولكن أيضا أكثر هشاشة، فحين يتحول الانسحاب إلى آلية قائمة ضمن العلاقة تتحول العلاقة نفسها إلى مشروع غير مضمون يتطلب تبريرا مستمر[7].

ويتبين من هذا المنظور، أن تحول مفهوم العلاقة داخل الأسرة من رابطة مفروضة؛ الشكل التقليدي للروابط الأسرية؛ إلى رابطة مختارة يوفر الخلفية البنيوية لتحولات الحميمية المعاصرة. فتحول بنية الروابط على الرضا والعاطفة لا على الواجب، تصبح الأسرة مجالات دائما ومستمرا للتفاوض والتبرير، وهو ما يفتح الباب أمام التساؤل بشأن الهشاشة العاطفية باعتبارها محور سوسيولوجيا الحميمية الأسرية الحديثة.

2. العلاقة الخالصة والفردنة

ما هو مضمون العلائقية الأسرية؟ أو بمعنى آخر على ماذا تبنى؟ أشرنا في السابق، إلى أن الأسرة سوسيولوجيا عرفت تحولات في طبيعة العلاقة. ويبين أنتوني غيدنز أن العلائقية الحميمية الأسرية في الحداثة المتأخرة لم تعد مبنية على الواجب أو القرابة أو الدور أو المصلحة الاجتماعية، بل على الرضا الذاتي المتبادل، بمعنى تحول العلاقة إلى تجربة لا إلى مؤسسة، وإلى مشروع مستمر بين أفراد وليس إلى التزام مطلق يستند على معايير وقواعد خارجية. وعلى هذا الأساس، فإن العلاقة الخالصة، وفق مفهوم أنتوني غيدنز، تفترض ذاتا فردانية. والذات، في هذه الحالة، لم تعد معطى بل تبنى اجتماعيا، وبما أن الذات مشروع فالعلاقة تصبح جزء من هذا المشروع، وبالتالي فإن العلاقة الخالصة لم تعد إطارا للهوية بل موضوع لبنائها[6]. يرفض أنتوني غيدنز اعتبار الذات الفردانية في الحداثة تعني الانفصال عن الآخرين، ولكنها ذات طبيعة انعكاسية تحتاج إلى اعتراف مستمر ودائم، وهو الذي يتم داخل علاقات الاعتراف والحميمية. وهذا يعني ان الزواج نفسه أصبح غير متطابق مع توصيف المؤسسة، حيث أنه في المجتمعات ما قبل الحداثية كان الزواج يحدد هوية الفرد، بمعنى أن الزواج آلية لإدماج الفرد في بنية اجتماعية، وهو الذي جعل الهوية تشتق من الانتماء للعائلة، من القرابة أو من الموقع داخل الجماعة[6]. وعكس المجتمعات الحديثة، حيث تتحول العلاقة إلى خدمة مشروع الذات، وهو الذي يجعل الحب فضاء لتحقق الذات ولا يبنى على التضحية المؤسسية.

يمكن اعتبار أن مسار الفردنة وفكرة الفرد في الحداثة، من منظور أنتوني غيدنز، أثر بشكل أساسي على تحول العلاقة الأسرية والحميمية ذاتها. وفي ذات المنظور، يعتبر بيك وبيك – غرينشايم أن الفردنة ضمن العلاقات لا تعني اختفاء الروابط، ولكنها تعني تحميل الأفراد مسؤولية بنائها. بمعنى أن العلاقات الحميمية تتحول إلى سدرية ذاتية تؤثر فيها هوية ومشروع الذات الفردية. إن المجتمع وفق هذا التصور لا يوفر مسار جاهزا للفرد، بمعنى أنه لا يحدد له زمن الزواج أو كيف يكون بل يفترض في الفرد ذاته صياغة وصناعة هذا المسار لنفسه، بمعنى أن الزواج والأسرة والعلاقات وطبيعتها تتحول إلى مشروع فردي يتم تقاسمه في إطار الاسرة كعلاقة [8]. ويعتبر بيك وبيك – غرينشايم أن مسار الفردنة هذا ليس تحررا بسيطا، ولكنه تحول في العلاقة نفسها، حيث أن المجتمعات التقليدية عرفت بدعم البنية للعلاقات وحمايتها بالأعراف والتقاليد الاجتماعية لكن المجتمعات الحديثة سحبت هذه الدعامات من العلاقة، بمعنى أن العلاقات الحميمية والاسرية لم تفقد وجودها ولكن فقدت الضمانات التي استندت عليها في السابق[8][6]. ومن منطلق هذا المنظور، فإن اللايقين لم يعد جزء من المؤسسات بل أصبح هو العلاقة نفسها، بمعنى أن الفرد لم يعد محميا، كما كان في السابق، ولكن أصبح مسؤولا عن حماية نفسه من هشاشة الروابط.

---

[5]يشير منظور "الفوضى الطبيعية للحب" إلى عدم ارتباط الحب بأي مؤسسة اجتماعية مستقرة، ولكن يتم انتاجه والحفاظ عليه من طرف الافراد ذاتهم.

[6]يشير بيك إلى أن الفردنة حولت مسؤوليات المخاطر الاجتماعية من المؤسسات إلى الفرد ذاته.

يسجل بيك وبيك – غرينشايم أن حرية اختيار الشريك في العلاقة تعني كذلك حرية الانسحاب (the freedom to leave)، وهو ما يعني أن هذا التحول يمكن من يوليد ذوات حرة، ولكن في المقابل يؤدي إلى بناء روابط غير آمنة وغير مستقرة. وهذا التوتر المستمر بين إمكانية الاختيار وإمكانية الانسحاب يخلق حالة مستمرة من عدم اليقين وغياب التوازن على مستوى الموارد وبالتالي يؤثر على العلاقة ذاتها[7].

3. وهم الحرية العاطفية

يوضح بيك Beck كما أشرنا إلى ذلك في المحور السابق، أن من سمات الحداثة في العلاقات الحميمية والأسرية استنادها على الفردنة. وهو ما يخلق بالضرورة هشاشة في الروابط وتوتر بين حق الاختيار وحق الانسحاب، لكن في المقابل، فإن هذه الحرية في الاختيار العاطفي والحميمي تظل مقترنة بالسياق الثقافي للمجتمع ككل. وفي هذا الصدد، تلاحظ إيفا إيلوز Eva Illouz أن الاختيارات العاطفية والرومنسية الحديثة نشأت في ظل الرأسمالية وليس خارجها، أو بمعنى آخر تعتبر أن الممارسات الحديثة للرومانسية والحميمية تتشابك من الثقافة الاستهلاكية للرأسمالية المتأخرة[9]. ويحيل هذا المنظور، إلى أن اعتبار الاختيار العاطفي والحميمي حرا لا يتوافق مع اعتباره في الواقع مشفرا ثقافيا، بمعنى أن الفرد في اختياره يظل متأثر بصور الرومانسية في الصناعة السنيمائية، ومعايير الجاذبية والجمالية كما يعرفها السوق، وطقوس الاستهلاك (الهدايا، والسفر الحفلات وغيرها)، وهو الذي يجعل الحرية العاطفية، وفق منظور إيفا إيلوز، اندماجا في بنية السوق الاستهلاكي أكثر من كونه استقلال عنها. وفي المقابل، تنزع السوق العاطفية إلى تحفيز الأفراد على تبني منظور عقلاني في الاختيارات العاطفية، حيث تربط بين هذا الاختيار والحسابات العقلانية للكلفة والعائد والمنفعة الذاتية.

يظهر منطق تحول العلاقات الحميمية والأسرية إلى الحرية في الاختيار عبر ما يسميه أنتوني غيدنز العلاقة الخالصة، وما اعتبره بيك Beck تحملا لمسؤولية الفرد في بناء سيرته الذاتية للعلاقة الحميمية، إلى الانتقال إلى مقاربة هذه الحرية والمسؤولية ضمن السوق الرمزي للاستهلاك الرأسمالي، بشكل يحدد معايير الجاذبية ومنطق المقارنة وغياب المساواة في القدرة على الانسحاب من العلاقة، وهو ما يظهر منطق الوهم في الحرية العاطفية من خلال تقلص القيود الاجتماعية وسيادة وتحكم آليات السوق غير المرئية في الاختيارات الحميمية والعاطفية للأفراد[10]. في المقابل، تثير إيفا إيلوز مسألة الاختيار ضمن منظور المساواة بين الجنسين كبعد أساسي لوهم الاختيار العاطفي، وتؤطره ضمن سوق الحميمية والعاطفة، وتعتبر أن هذا السوق يمنح من يملك رأس مال جسدي/رمزي أعلى قدرة أكبر على الانسحاب من العلاقة، بينما تجعل من يعتمد استثمارا عاطفيا أعلى أكثر هشاشة ضمن العلاقة ذاتها. وتعتبر أن السمة الأولى تتوفر لدى الذكور وهو الذي يمنحهم القدرة على الانسحاب بشكل أكثر يسرا، لكن في المقابل يكون الاستثمار العاطفي مرتبطا بالنساء وهو ما يجعلهن أكثر عرضة للآثار المدمرة للانسحاب وانتهاء العلاقة، وبهذا المعنى فإن إيفا إيلوز تعتبر الحرية العاطفية، في هذا السياق، غطاء يخفي علاقات القوة بين الأفراد[9].

4. الأسرة كفضاء تفاوض وهشاشة

يشير أنتوني غيدنز إلى أن الأسرة في السياق المعاصر تميل إلى تبني علاقة حميمية تفاوضية. حيث يعتبر أن "الحميمية، لا تعني أن تمتص الآخر، بل أن تعرف خصائصه وتتيح له خصائصك. وهذا التوازن يفترض كذلك التوازن في "القوة"[6]. ويقول في هذا الصدد "تولد الأسرة النووية تنوعا في الروابط القرابية الجديدة. ومع ذلك، فإن طبيعة هذه الروابط تتغير لأنها تخضع لمستوى أكبر من التفاوض مقارنة بالماضي". ويؤكد أنتوني غيدنز إلى أنه إذا " كانت علاقات القرابة تعتبر أساسا مفروغا منه للثقة في الماضي؛ فإن فالثقة اليوم يجب أن يتفاوض ويساوم عليها، والالتزام أصبح قضية مطروحة تماما كما هو الحال في العلاقات

الجنسية"[6]. وتحولت الأسرة، بهذا المعنى، إلى بنية غير هرمية حيث الأب لم يعد هو من يقرر، ولا الزوج هو الذي يفرض تصوره، ولا الأم هي التي تطيع وتنفذ. بل تطرح أسئلة أكثر جوهرية تتعلق بمن يقوم بماذا ومن يضحي ويعمل ويعتني ويقدم الرعاية لباقي أفراد الأسرة، وهو الذي يجعل مسألة التقرير والممارسة الحياتية موضوع تفاوض يومي في العلاقة الأسرية.

يشير بيك Beck إلى جانب آخر من هذا التحول في روابط الأسرة، والذي يقترن بكون العلاقة عقد قابل للمراجعة والانسحاب، فالأسرة ليست التزاما غير مشروط، ولكنها تعبير عن تجارب جديدة مدفوعة بالتغيرات الاجتماعية التي يعيشونها، وفي هذا الصدد يعتبر بيك وبيك – غرينشايم أن"الأفراد، مدفوعين إلى حد كبير بالتغيرات الاجتماعية وبشكل غير إرادي، يدخلون مرحلة بحث واستكشاف. إنهم يريدون تجربة و"معايشة" (بالمعنى الفعال للكلمة) طرق جديدة للعيش لمواجهة هيمنة الأدوار (رجل، امرأة، أسرة، مهنة) التي أصبحت أكثر فأكثر غير ذات صلة. يريدون التعبير عن أنفسهم بحرية والاستسلام للاندفاعات التي كانوا يكبتونها. ويسمحون لأنفسهم بالاستمتاع بالحياة هنا والآن، لا فقط في المستقبل البعيد، ويزرعون لذة واعية في الأشياء الجيدة في الحياة. وقد بدأوا يعتبرون احتياجاتهم حقوقا يجب الدفاع عنها عند الضرورة ضد الإملاءات والالتزامات الرسمية. إنهم يطورون إحساسا بالحرية، ويصبحون واعين بشدة بضرورة حماية حياتهم من أي تدخل خارجي، ومستعدين لأن يصبحوا نشطين اجتماعيا وسياسيا كلما تعرضت أراضيهم الخاصة للتهديد، ويتجاهلون، في الأغلب، الأشكال والمنتديات التقليدية للتعبير..." [7].

ويطرح السؤال في هذا الصدد، حول قابلية هذه الصيغة التفاوضية للعلاقات الحميمية والأسرية للتحول لهشاشة شاملة، ويرى بيك Beck في هذا السياق، أنه "بالنسبة للفرد، يعني قطع الروابط التقليدية التحرر من القيود والالتزامات السابقة. لكن في الوقت نفسه، يبدأ الدعم والأمان الذي توفره المجتمعات المتماسكة في التلاشي"[7]. وكنتيجة لهذا التحول يولد نوع من "فقدان عميق الاستقرار الداخلي". وعلى هذا الأساس " يكتسب الزواج أيضا معنى جديدا، ففي العيش المشترك، يبني الرجل والمرأة كونا من المواقف والآراء والتوقعات المشتركة، يشمل كل شيء، من الأمور اليومية البسيطة إلى الأحداث الكبرى في السياسة العالمية. ويتطور ذلك عن طريق حوار لفظي أو غير لفظي، في العادات والتجارب المشتركة، وفي تفاعل مستمر بين كل طرف ونصفه الآخر. إن صورة العالم المشتركة تعاد صياغتها باستمرار، تنقل، تستبدل، تساءل وتؤكد من جديد"[7].

تثار كذلك في سياق تحديد مواقع الهشاشة، مسألة ضمانات الاستقرار الشخصي، فالعلاقات في النماذج التقليدية بنيت بشكل رئيسي على الانتماء للمنزل الكبير (الأسرة الممتدة) والتي شكلت وحدة اقتصادية تضمن للفرد استمرارية العيش وفق قواعد محددة خارجية. ولكن في هذا السياق، ومع تركيز بنية الأسرة النووية تحول المنطق الناظم لهذه العلاقة، كما يري بيك وبيك – غرينشايم، أنه "ما كان في السابق فريقا يتقاسم العمل أصبح زوجين يتقاسمان المشاعر"[7] ويتحملان بالتالي ضغوطا بنيوية واقتصادية مشتركة تدفع كل منهما إلى التفكير بطريقة عقلانية، سواء في المشاركة والبقاء أو الانسحاب والتخلي.

في جانب آخر، يرى فرونسوا ذو سنغيلي François de Singly أن الأسرة تحولت من فضاء للضبط السلوكي لأفرادها، إلى فضاء يوفر إمكانية الاعتراف بالأفراد كذوات. حيث يعتبر أن "الأسرة الحديثة هي مجموعة من الأفراد الذين يتمتعون بقدر من الفردية أكبر مما كان عليه سابقا"[1]، بمعنى أن الأسرة تتحول إلى فضاء للتفاوض حول هوية الأفراد وعوائق الحياة العامة، لكن السؤال الذي يتم طرحه هو: لماذا يولد هذا التحول في الأسرة والعلاقات الحميمية عدم الأمان أو الهشاشة العاطفية؟

توضح كارول سمارت Carol Smart أن التحول في طبيعة الأسرة والعلاقات الحميمية داخلها يخلق أسر قائمة على "حسابات هشة"، بمعنى أن الأسرة أصبحت تعيش فقط على الجهد العاطفي المبذول من الطرفين، والقدرة على التواصل بين الزوجين، والخوف من انهيار العلاقة في حالة عدم ملائمة الوضعية الأسرية للحسابات التي تضعها مكوناتها، فيصبح الحب مهما، ليس فقط من حيث وجوده ولكن من حيث التعبير عنه قولا أو فعلا، سواء بالحديث عنه أو بالأفعال التي يقوم بها الأزواج اتجاه بعضهم البعض. وتشير كارول سمارت إلى هذا الأمر بشكل واضح في تحليلها للمقابلات مع الأزواج موضوع الدراسة، حيث تعتبر أنه "كان هذا التاريخ المشترك قصة عن كيفية رعايتهما لبعضهما البعض وإظهار الحب بطرق عملية. وهذا يشير إلى أن فكرة الالتزام كعملية متشابكة مع فكرة الحب كعملية"[11]. ويتبين أن الأسرة المعاصرة، ليست مؤسسة ثابتة أو تجمعا عاطفيا حرا، ولكنه فضاء تفاوض مستمر داخل بنية فردانية. حيث يطلب من الأفراد أن يختاروا ويتواصلوا ويبرروا اختياراتهم ومسارهم اليومي ومواقفهم اتجاه الشريك وعناصر الحياة العامة وأن يعيدوا التفاوض بشأن الهوية الفردية والأسرية، لكن دون وجود ضمانات مطلقة للاستمرار.

5. سوسيولوجيا نقدية للحميمية

تثير العلاقات الأسرية والحميمية الحديثة تساؤلات نظرية جوهرية، فمن خلال القراءات السابقة يمكن ملاحظة التوتر الحاصل بين فكرة الحميمية الحديثة كفضاء للحرية الخالصة واعتبارها نظام اجتماعي جديد للسلطة واللامساواة الاجتماعية. يقدم أنتوني غيدنز وبيك Beck سردية تركز على فكرة تحرر العلاقات الحميمية والأسرية، وبشكل خاص من خلال التفكير فيها باعتبارها لم تعد علاقات مفروضة بضغط من البنى الاجتماعية كما هو الحال في المجتمعات التقليدية. أضافة إلى أن أهم سمة للحداثة ترتكز على اختيار الأفراد لشركائهم واعتبار الحميمية مسألة متفاوض بشأنها وديموقراطية. حيث يرى أنتوني غيدنز أن في العلاقة لا أحد يملك سلطة طبيعية، ولكن تعاش العلاقة بافتراض أن التفاوض هو ما يشكلها. وفي هذا الصدد فإن بيكBeck وأنتوني غيدنز لا ينظران إلى هذا التحول من منظور السلطة الناشئة، فهما لا ينظران إلى اللامساواة الجندرية أو رأس المال الجسدي/الرمزي أو التفاوت في القدرة على الانسحاب. حيث يعتبر أنتوني غيدنز أن التفاوض يعكس وضعا مساواتيا بين طرفي أو أطراف العلاقة[6]، ولكنه لا ينظر إلى الموارد التي تحدد مواقع القوة في حالة التفاوض ذاتها. ويركز لبيك Beck فهو على الهشاشة التي تفرضها حرية الاختيار[7]، لكن دون أن يفكك ثنائية التأذي من هذه الهشاشة وتكلفتها الاجتماعية ومن الطرف الذي يربح منها.

ترى إيفا إيلوز أن التحرر في العلاقات الحميمية يخفي خلفه أشكال جديدة من السلطة، حيث تعتبر أن الرومانسية و" العواطف هي التقاء معقد بين الإثارة الفسيولوجية، وآليات الإدراك، وعمليات التفسير؛ وهي تقع عند العتبة حيث يشفر غير الثقافي في الثقافة، حيث يلتقي الجسد والإدراك والثقافة ويذوب بعضها في بعض. وباعتبارها ممارسة ثقافية، فإن الحب الرومانسي يخضع لتأثير مزدوج من المجالين الاقتصادي والسياسي؛ لكنه، بخلاف الممارسات الأخرى، ينطوي على تجربة مباشرة للجسد"[9]. وهو ما يجعل الحميمية منظمة في سياق سلطة ناعمة، ترتكز على السوق والجنذر والثقافة، بمعنى أن الحميمية تتحول إلى جزء من المجتمع وبنياته الاجتماعية والجندرية، وهو ما تشير له كارول سمارت كذلك، وبشكل خاص من خلال رفضها للفصل بين الخاص والاجتماعي، فهي تعتبر الحياة الخاصة محملة بالمعايير الاجتماعية وعلاقات السلطة والأحكام الأخلاقية، وكذلك أن الحميمية هي المفتاح الذي يمكن من فهم كيف تعاش اللامساواة ويعاد إنتاجها[11].

تركز فكرة الفردنة والتحرر على فقدان العلاقات الحميمية والأسرية التقليدية معناها، وانتقلت إلى حرية ومسؤولية الاختيار العاطفي لدى الافراد، النساء والرجال، لكن هذا التصور، يظل وصفيا لحالة التحول ولا تفسره. وعلى خلاف ذلك فإن أي تصور نقدي يجب أن يركز على التساؤلات الأساسية التالية وهي؛ من يملك القدرة على الاختيار؟ ومن يدفع ثمن هذه الحرية في الاختيار؟، وبالتالي فإن تصور الحميمية كجزء من البنى الاجتماعية، وباعتبارها مبنية على منطق الطلب والعرض. إلى جانب أن الاختيار العاطفي ليس محايدا، حيث تحتاج النساء إلى استثمار عاطفي أكثر، بينما في المقابل يتحملن بشكل أكبر كلفة الانسحاب أو الانهيار، وبالنسبة للرجال فإنهم يستفيدون، نسبيا، من مرونة السوق العاطفي، وقدرتهم على التكيف مع الانسحاب. ومن هذا المنطلق، يفترض التفكير في الروابط والحميمية في المجتمعات المعاصرة كنظام اجتماعي يتقاطع فيه منطق السوق، واللامساواة الجندرية، وضغوط الفردنة، لإنتاج علاقات تبدوا للوهلة الأولى كاختيارات حرة ولكنه مثقلة بالسلطة وإعادة انتاجها بصيغة ناعمة. حيث تتحول السلطة من وسائل القهر والقمع المباشر إلى تحويل الرغبة والحميمية نفسها إلى أداة للسلطة بشكل يضمن فعاليتها.

الخلاصة:

تبين هذه الدراسة، أن الأسرة في المجتمعات المعاصرة، تطرح من الأسئلة أكثر مما تقدم من إجابات شافية ونهائية. وهذا التنوع في المقاربات والاشكاليات التي تثيرها تحولات الأسرة، يمكن تلخيصه في منظورين؛ يتعلق الأول بمنظور أنتوني غيدنز وبيك Beck، الذين يركزان على حرية الاختيار والفردنة والحميمية الأسرية وهشاشتها، والمنظور الثاني يتعلق بمنظور سمارت وإيلوز، رغم الاختلافات بينهما، حول الحياة الشخصية للأسرة باعتبارها حالة انعكاسية تعاش في ظل البنى الاجتماعية، أو التركيز على الحميمية في السياق الثقافي الاستهلاكي للرأسمالية المتأخرة. وعلى العموم، فإن المنظورين يعكسان دينامية هشاشة بنيوية لا تنتج عن فشل الأفراد، بل عن منطق اجتماعي جديد يحكم الحميمية والعلاقات الاسرية .

وتحاول الدراسة تقديم نقد للمنطق الداخلي الذي ينظم تحولات الأسرة والانتقال من الأدوار إلى العلاقات، حيث حاولنا، قدر الإمكان، بيان أن الحميمية المعاصرة لا يمكن اختزالها في خطاب التحرر والاختيار الفردي، بالنظر لكونها تعمل في الواقع كنظام اجتماعي يعيد إنتاج علاقات السلطة بوسائل ناعمة وغير مرئية. فالحميمية، ومن خلفها العلاقات الأسرية، كما تظهر من خلال التحليل، ليس منفصلة عن البنى الاجتماعية، ولكنها نقطة التقاء بين الفردنة، والسوق والعلاقات بين الجنسين، بشكل يعيد إنتاج اللامساواة تحت خطاب التراضي والحرية المتبادلة.

يمكن القول، أن الحميمية المعاصرة، حررت العلاقات الأسرية من عدد من القيود التقليدية، لكن هذا التحرر لا يتم في فراغ اجتماعي محايد، بل داخل شرطية اجتماعية من عدم التكافؤ على مستوى الموارد والقدرة على الاختيار وإمكانية الانسحاب. وهو ما يجعلنا نميل إلى افتراض أن الحميمية المعاصرة لم تحدث قطيعة كلية مع السلطة، لكنها أعادت تنظيمها داخل منطق يظهر اختياريا وتفاوضيا. وهو ما يعكس توتر ملاحظا، يتمثل في أن الروابط والعلاقات الأسرية تصبح أكثر حرية من حيث المبدأ، لكنها في المقابل، تعتبر أكثر هشاشة وتمييزية من حيث الممارسة.

REFERENCES:

[1] De Singly, F., Sociologie de la Famille Contemporaine, 6th Ed., Armand Colin, 2017.

[2] Bales, R. F., and Parsons, T., Family: Socialization and Interaction Process, Routledge, 2014.

[3] Parsons, T., The Social System, Routledge, 2013.

[4] Durkheim, É., De la Division du Travail Social, FB Editions, 1893.

[5] Durkheim, É., "La Famille Conjugale," Revue Philosophique de la France et de l'Étranger, vol. 91, pp. 1–14, 1921.

[6] Giddens, A., The Transformation of Intimacy: Sexuality, Love and Eroticism in Modern Societies, Polity Press, 1992.

[7] Beck, U., and Beck-Gernsheim, E., The Normal Chaos of Love, John Wiley and Sons, 2018.

[8] Beck, U., Risk Society: Towards a New Modernity, vol. 17, Sage Publications, 1992.

[9] Illouz, E., Consuming the Romantic Utopia: Love and the Cultural Contradictions of Capitalism, University of California Press, 1997.

[10] Illouz, E., Cold Intimacies: The Making of Emotional Capitalism, Polity Press, 2007.

[11] Smart, C., Personal Life, Polity Press, 2007.